مجلة أسيناگ-ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ، العدد الأول – 2008، ص 49 - 76

تعريب المجتمع في العصر الوسيط ودوره في التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب

رحمة تويراس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط

ملخص

يعتبر التعدد اللغوي والثقافي من أبرز سمات تاريخ المغرب. وكما هو معروف، أصبح التعريب موضع سجال بين المهتمين إن لم يكن يحتل مكان الصدارة في النقاشات المعاصرة. وفي هذا السياق، نتساءل عن عمق هذا الواقع خلال العصر الوسيط، مع رصد الظواهر الكبرى واستقراء المكونات الأساسية التي أنتجته.

وبما أن سلسلة التعريب مغمورة ومفككة في خضم الوقائع والأحداث السياسية، فإن هذا الواقع لا يلمس إلا في صورة أصداء خافتة. وعند قراءة النصوص التاريخية نفاجأ بفراغ في الرواية، وفي أحسن الأحوال نصادف نتفا من الأخبار عبارة عن جمل أو سطور لكنها –على ضآلتها– تبدو ثمينة.

تجلى التعريب في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط على مستويين : على مستوى الدولة؛ حيث أصبحت اللغة العربية وقيمها الثقافية مقبولة ومتبناة تؤهل لأخذ المناصب والخطط والارتباط بسلك الدولة؛ وعلى مستوى المجتمع، إذ سارت الأمور في اتجاه يدعم ترسيخها على مستوى التداول اليومي في الحواضر والبوادي. وهذا العنصر الأخير هو المقصود في هذا المقال.

مقدمة

استرعى التنوع اللغوي خلال العصر الوسيط اهتمام الدارسين (Marçais, 1938; Terrasse, 1947 ; Montagne, 1947; Laroui, 1970; Camps, 1983; Aguadé et *al* J. 1998) ، وأثار لديهم عددا غير قليل من الأسئلة. وكما هو معروف، أثرت الفتوحات الإسلامية في كل الشعوب التي حلت بينها، وبدأت اللغة

العربية تخترق بيئات جديدة ذات حضارات عريقة في كل من آسيا، وأفريقيا، وشبه الجزيرة الإيبيرية. واحتكت أثناءها بعدد من اللغات مثل الآرامية، السريانية واللاتينية بالشام، والفارسية ببلاد فارس، والقبطية بمصر، والأمازيغية واللاتينية بشمال أفريقيا، والقوطية بإسبانيا، إلى غير ذلك من اللغات في أقطار مختلفة مثل الهند وغيرها.

وكان تأثير اللغة العربية في هذه اللغات متفاوتا من منطقة إلى أخرى. ففي مصر، انكمشت القبطية في الأديرة والكنائس، وتعربت المنطقة في ظرف زمني وجيز. واتخذت بعض اللغات الآسيوية الحروف الهجائية العربية مثل الأردية والفارسية. وكادت هذه الأخيرة أن تضمحل لولا حركة إحيائها التي ظهرت أواخر القرن الثالث الهجري/9 م. وفي سواحل شرق أفريقيا، استوعبت اللغة السواحلية قدرا كبيرا من المصطلحات العربية، واشتملت لغات أخرى على كلمات وتراكيب عربية.

وفي الغرب الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي، بدأت اللغة العربية تنتشر إلى جانب اللغة الأمازيغية وعرف المغرب الأقصى تحولا مذهلا على المستوى اللغوي؛ حيث شكل التعريب واقعا متميزا وبارزا، استمر في الترسخ عبر القرون في سيرورة لا تنقطع. وأضحت اللغة العربية تغطي رقعة مهمة على الخريطة اللغوية.

1 –ملاحظات أولية

لما اعتنق الأمازيغ الإسلام، بدأت اللغة العربية تشق طريقها تدريجيا في المجتمع الأمازيغي؛ وذلك عبر طرق وقنوات متعددة وحقب مختلفة. وهناك ملاحظة أولية تفرض نفسها، وهي أن التعريب لم يكن ملازما للإسلام؛ فرغم الارتباط الوثيق بين الإسلام والعربية، فإنهما لم يسيرا بشكل متوازٍ (Camps, 1983)؛ إذ أصبح جزء كبير من المغرب مسلما في أقل من قرنين من الزمن في وقت لم تستقر فيه اللغة العربية بعد. وتدريجيا برزت كفاعل أساسي في مسار

تاريخ المغرب (Marçais, 1938). واجتمع لها من عوامل القوة[1]، وتهيأ لها من الأسباب ما جعلها لغة التخاطب اليومي، ولغة الإدارة والتعليم والآداب (العروي، 2000)؛ ساعدها في ذلك سلطتها المعنوية؛ غير أن القضية لا تتصل فقط بالشعور الديني، إذْ إلى جانب الموقف العاطفي توجد عوامل أخرى داخلية وخارجية مهدت للتعريب.

شكل المغرب على امتداد تاريخه معبرا هاما التقت عبره تيارات وحضارات متنوعة. وكما هو معروف، رافق الاحتلال الروماني دخول الديانة المسيحية، واللغة اللاتينية التي صارت لغة رسمية للكنيسة الأفريقية. وكثيرا ما تساءلت الأبحاث الغربية عن أسباب اندثار اللغة اللاتينية بهذه السرعة المدهشة. صحيح أن العرب أبقوا على اللاتينية في البداية بإفريقية كلغة للإدارة، ومع استمرار سياسة تعريب الإدارة والدواوين في الدولة الإسلامية أخذت اللاتينية تفقد أهميتها وتسير نحو الأفول. كما أن استعمال اللاتينية كان شائعا في جنوب تونس أواسط القرن السادس الهجري/ 12م؛ إذ أن أغلب سكان قفصة كانوا يتكلمون باللسان اللاتيني الإفريقي (الإدريسي، 1970). وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن استعمال اللغة اللاتينية هي الخاصية التي كانت تميز الأفارقة. وبالمغرب الأقصى، لا يبدو أن اللاتينية تحولت إلى أداة للتواصل اليومي بين الأمازيغ، وربما لم تكن منتشرة على النطاق الذي تخيله الباحثون الغربيون (العروي، 2000)، فظلت اللغة الأمازيغية صاحبة السيادة والنفوذ.

ولما لم يترك التدخل الروماني أثرا كبيرا على المستوى اللغوي، فإن المرحلة الإسلامية تركت بصمات قوية، وطبعت بعمق ملامح الهوية المغربية. لعل ما يبرز أهمية الموضوع أن هناك مجموعات بشرية اعتنقت الإسلام، لكنها حافظت على

[1] بمعنى أنها أصبحت لغة عالمة انتشرت خارج موطنها الأصلي بعامل القهر الثقافي، وبرهنت على حيويتها الثقافية، واحتضنت أرقى حضارة عالمية ومنتهى ما وصلت إليه المعرفة البشرية في ذلك العصر. لذلك كان طبيعيا أن تصبح اللغة العربية لغة الإدارة والمراسلات والمنتديات الثقافية. كما ساهم الخط العربي بقوة في خدمة اللغة العربية فهو يلي الحديث أو الكلام من حيث الترتيب الدلالي اللغوي، (ابن خلدون، 1988)، وبدأ يعرف الانتشار مع الفتوحات الإسلامية. إلا أن البداية الحقيقية لانتشاره بدأت عندما انتهجت الدولة الإسلامية سياسة التعريب في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، ومال المجتمع الإسلامي الواسع كله تقريبا إلى الخط العربي؛ بل إن كثيرا من اللغات أصبحت تكتب به، فالفارسية تكتب وإلى يومنا هذا بحروف عربية مكيفة جزئيا مع خصوصيات الفارسية. واختارت لغات أخرى الخط العربي شأنها شأن الفارسية. وانتشر الخط العربي بشمال أفريقيا باعتباره رسم القرآن (Sourdel). كما سجلت بعض المؤلفات الفقهية والعقائدية الأمازيغية بخط عربي. واستعمل كذلك في الزخرفة وعلى الآثار المعمارية والقطع النقدية. وتعرض لتحويرات جمالية على يد الخطاط المغربي بأسلوب يختلف عن الأسلوب المشرقي.

لغاتها ولهجاتها، وإن تأثرت بشكل أو بآخر باللغة العربية. بينما تبنى المغرب الأقصى اللغة العربية (صدقي، 2002) و صارت الأمور في اتجاه يمثل ترسيخها على المستوى الثقافي والإداري (المنوني،1991؛ Garcin et *al*. 2000) وكذلك على مستوى التداول اليومي.

2 – مفهوم التعريب

التعريب بمفهومه الشامل هو كل ما يتعلق بإنتاجات المجتمع الثقافية والاجتماعية وسائر المؤثرات الحضارية؛ بحيث تمثل فيه اللغة عنصرا أساسيا، ويشمل أمرين رئيسين:

- أولا : اتخاذ اللغة العربية لغة التواصل بين أفراد المجتمع،
- ثانيا : استعمال اللغة العربية في الإدارة والثقافة والتعليم.

فهناك العربية الفصيحة التي تميزت عن العامية واستعملها العلماء والأدباء والفقهاء، وهناك العامية لغة التخاطب اليومي التي كان يتداولها الناس في حياتهم العادية وأمورهم اليومية.

وبما أن التعريب جاء نتيجة مخاض تاريخي طويل، فسنحاول تتبع وتقصي الأشواط التي قطعها بوضعه في سياقه التاريخي العام. ولعل أهم وسائل التعريب تكمن في العنصر البشري، الذي شكل مادته الأولى العنصر العربي خاصة، مع توجيه الاهتمام إلى مواطن استقراره، ورصد المجالات التي اعتمد أهلها على اللغة العربية كلغة للتواصل اليومي، أو تلك التي ظلت صلتها بها ضعيفة.

3–الفتح الإسلامي والهجرات العربية المصاحبة له

من خلال استقراء الوقائع والأحداث التاريخية، نلاحظ أن الحضور العربي كان أقوى في إفريقية والأندلس منه بأقصى المغرب. فالجيوش العربية كانت تتركز أساسا في القيروان (ابن عبد الحكم، 1964؛ ابن عذاري، 1980) ولم يكن يتخلف بالمنطقة سوى أقليات متناثرة ومحدودة من العرب الذين كان يكلفهم القواد الفاتحون بمهمة تلقين مبادئ الإسلام. فموسى بن نصير لم يترك بأقصى المغرب حسب رواية ابن عذاري سوى سبعة وعشرين رجلا، ولا يقــترن بعقبة إلا اسم صاحبه شاكر (ابن عذاري، 1980)؛ ولم يستوطن البلاد إلا أعداد ضئيلة من الولاة العرب وحاشيتهم للقيام بالخدمة العسكرية، أو المهام الإدارية.

وقد يتعلق الأمر بالهاربين من ملاحقة السلطة، إذ كان أقصى المغرب – بسبب بعده عن مركز الخلافة– ملاذا للكثير من الثوار الذين لجأوا إليه حيث لا

تدركهم يد الدولة، مثل الخوارج الذين تسربوا إليه في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة والذين لا نعلم عنهم الكثير. ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأسلوب السري الذي انتهجوه لإجراء التأثير المطلوب، خصوصا بعد فشل ثورتهم بالمشرق، ولا شك أن الحماس لدعوة الخوارج واشتعال ثورة عارمة فجرت الأوضاع بالمغرب الأقصى تقريبا، وامتد تأثيرها إلى المناطق الشرقية يدفع إلى الاعتقاد بأن جماعات من الخوارج دخلت المغرب منذ وقت مبكر (بل،1981). ولا ريب أن تيار الهجرة لم ينقطع وظل مستمرا على امتداد فترة الفتنة.

إن تحديد مواطن العرب الوافدين إلى المغرب الأقصى يطرح مشاكل عديدة، (Rosenberger, 1998) خصوصا أن المعلومات مستترة ومهملة وراء الأحداث الصاخبة. وحسب المصادر، فقد استقرت فروع عربية بالمراكز، والثغور المتناثرة على امتداد الساحل المغربي الشمالي، كما هو الشأن بالنسبة لطنجة التي حلت بها قوات عربية منذ العهود الأولى للفتح الإسلامي، وسبتة التي كانت توجد بها عناصر عربية. وإثر اندلاع ثورة الخوارج بزعامة ميسرة، دخل الأمازيغ المدينة فخربوها وأخرجوا من كان فيها من العرب (البكري، 1911؛ ابن عذاري، 1980؛ ابن خلدون، 1988).

وحل ببلاد الريف صالح بن منصور الحميري الذي انتقل صحبة الجيوش العربية، واستقل بها بعدما أقره الخليفة الوليد بن عبد الملك عليها عام 91 هـ/ 709م. ويبدو أنه استقر معه بعض العرب اليمنيين الذين كانوا ضمن الجنود الفاتحين. ومن المحتمل أن المنطقة كانت ملجأ لعناصر عربية جديدة. فبعد الهزيمة الثقيلة التي حلت بالعرب في موقعة بقدورة بوادي سبو تفرقوا حتى قيل إن منهم من احتمى بجبال درن المنيعة (مجهول الاستبصار، 1985)، فخملت أنسابهم واندمجوا بغيرهم، وبذلك لا يستبعد وصول بعضهم إلى إمارة نكور بالريف (أبو ضيف أحمد، 1986)، وهي كيان عربي سني مالكي يعتبر الأول في المغرب ابتداءً من أوائل القرن الثاني إلى بداية القرن الخامس. وتوارث أبناء صالح بن منصور حكم الإمارة التي انحصر نفوذها في بعض السواحل الشمالية للمغرب حول مرسى المزمّة.

اتجهت أفواج أخرى جنوبا لتنزل بمنطقة السوس. وحسب رواية البكري فإن عبد الرحمان بن مروان نزل بالسوس، وجلب الماء لأهله وعمّره (البكري، 1911). ورحب بالوافدين من الأمويين الذين التحقوا به. ويبدو أن أقصى المغرب أصبح مجالا لتوافد عناصر جديدة أفرادا وجماعات لم تسجلها المصادر، مثلما هاجر إدريس بن عبد الله إثر قيام دولة بني العباس واضطهادهم للأسر العلوية. وكان ذكره سيبقى مغمورا لو لم يؤسس دولة الأدارسة التي استقبلت أول هجرة عربية

مكثفة إلى المغرب الأقصى (ابن أبي زرع، 1973؛ الجزنائى، 1967)، والتي كانت بمثابة النواة الأولى لتعريب المنطقة، دعمتها فيما بعد هجرات أخرى.

خلاصة القول إن الأمور بأقصى المغرب كانت مختلفة عما كان عليه الوضع في القسم الشرقي الذي عرف سياسة إعمار مكثفة (الدباغ وابن ناجي، 1968؛ الطالبي، 1985)، وظل مرتبطا بالمشرق عن طريق تيار الهجرة المستمر الذي كان يحمل من الشرق نخبا من أقارب الأسر الحاكمة، أو من شايعها من عصبيتها (الطبري، 1964؛ الرقيق القيرواني، 1968) أو من فر من الشرق تحت لواء دعوة دينية، أو غير ذلك مما يسر للغة العربية مد جذورها في الأوساط الأمازيغية.

وحسب المعلومات المتوفرة، ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن التعريب قد خطا خطوات مهمة بالمغرب الأقصى. فاللسان الأمازيغي لازال سائدا في مجموع ترابه؛ وإن كانت الصورة التي تقدمها المصادر عن وقائع وأخبار النصف الثاني من القرن الأول الهجري إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري توحي للقارئ أنه أمام منطقة عربية من النيل إلى المحيط، وهذه الصورة أقرب ما تكون إلى الخيال في مجتمع لازال حديث العهد باللغة العربية. كما نعجب لخطبة طارق بن زياد التي ساقها الرواة، (المقري، 1968) وهي خطبة بليغة تنافس الخطب العربية في قوة أسلوبها، وروعة عباراتها، ألقيت على مسامع جيش كان أغلب عناصره من متطوعي القبائل الأمازيغية الذين بلغ عددهم حسب رواية الرقيق القيرواني اثنا عشر ألف فارس (الرقيق القيرواني، 1968). وعموما، فإن هذه الخطبة ذاعت بين الناس وظلت محفوظة في ذاكرة المغاربة، لكنها لا يمكن أن تعتبر بأي حال عينة من واقع لغوي نظرا لتداخل الأسباب المانعة. وباستقراء هذه المرحلة التاريخية يمكن الخروج بالملاحظات الآتية:

- أولا: إن الفتح يعني بالأساس اعترافا بسيادة دولة الخلافة الإسلامية بالمشرق، ولا يعني بالضرورة فهما عميقا للدين، كما أنه لا يعني استعمال اللغة العربية في التخاطب اليومي (العروي، 2000). ويكفي هنا استحضار ما قاله عبد الله العروي من أنه إذا كان إسلام الأمازيغ في هذه الفترة المبكرة إسلاما سطحيا منحصرا في المبادئ العامة فلا شك أن تعريبهم كان أكثر سطحية (العروي، 2000)؛
- ثانيا: عامل الزمن الذي لا نوليه اهتماما كبيرا. فكما هو معلوم استغرق إسلام الأمازيغ زمنا طويلا، ولعل من بين الأسباب كونهم لا يعرفون اللغة

العربية[2]؛ ولا شك أن تعريبهم سيستغرق زمنا أطول (العروي، 2000) على أساس أن اختفاء أية لغة لا يحصل مباشرة وبسرعة، فهو نتيجة مخاض تاريخي طويل. ولم تكن هذه الفترة الوجيزة كافية ليتخلى المجتمع المغربي عن لغته لصالح التعريب. فالأمر كما هو معلوم لا يتعلق بفتح عسكري، وإنما بفتح من نوع آخر لا يتحقق بالمستوى نفسه وبالسرعة نفسها، لذلك من المعقول جدا أن يظهر التعريب بعد حيز مناسب من الزمن.

وينبغي كذلك أن نضع في الاعتبار الأساس الذي تم الانطلاق منه، وهو أن الفتوحات الإسلامية لم تحدث تغييرا جذريا كبيرا في البنية السكانية لأقصى المغرب (Terrasse, 1952 و صدقي، 2002) من شأنه أن يفرز تحولا لغويا[3].

غير أنه من الإنصاف القول بأن اللغة العربية وجدت مكانا في قلوب الأمازيغ وأسماعهم. وظلت تمارس تأثيرا وجدانيا في هذه المرحلة التاريخية (القادري بوتشيش، 1994). فهي لغة القرآن وتعلمها من تعلمه، فلا غرابة إذن أن يعشقها الأمازيغ المسلمون فيقبلوا عليها لما لها من سلطة معنوية. ولعل هذا هو ما يفسر التلاحم بين الإسلام واللغة العربية.

إن ما يمكن استخلاصه هو أن مجمل المؤشرات والقرائن تدل على أن الحديث عن التعريب في هذه المرحلة سابق لأوانه؛ بل إنه يعتبر ضربا من المغامرة والعبث، لأن الظروف لم تكن مواتية بعد؛ ورغم سطحيته، فهولا يشكل واقعا ظرفيا ولا عابرا، إذ أنه سيزداد رسوخا مع التطورات اللاحقة التي طرأت على المنطقة، لأننا بصدد فترة تمهيدية ككل البدايات.

---

[2] يعتبر جهل السكان للغة العربية من بين الصعوبات التي واجهت الفاتحين في نشر الإسلام في المجتمع المغربي، لكنهم استطاعوا أن يتغلبوا على ذلك نسبيا بإدماج الرهائن في الجيش، ولذلك كان للجيش أثره الملحوظ في نشرها.

[3] حسب دراسة لمحمد الطالبي، بناءا على كتاب البيان المغرب لابن عذاري. فإن الجيوش العربية التي توالت على المغرب مع حركة الفتح الإسلامي قد بلغت في مجموعها من سنة 50هـ إلى 155 هـ (من670 م إلى 771م)- أي ابتداء من جولة عقبة بن نافع، ومرورا بزحف حسان بن النعمان، وانتصار موسى بن نصير، إلى آخر تدخل عسكري بإفريقية بقيادة يزيد بن حاتم- ما يساوي مائة وثمانون ألفا، (الطالبي، 1985)، منها من بقي واستوطن المدن والرباطات والثغور من برقة إلى سبتة إلى طنجة، ومنها من عاد إلى المشرق. وسقط العديد منهم في المعارك التي اشتعلت بين قابس وطنجة. وانتقل بعضهم إلى الأندلس، وكان عددهم أربعون ألف مقاتل. وحسب هذه المعطيات، لا يمكن الجزم بأن الفتح كان موجة عربية عمت المغرب. وكما سبقت الإشارة، فإن الإستيطان العربي الذي صاحب الفتح الإسلامي وما بعده تقوى خصوصا في الجزء الشرقي بانتشار جماعات وبيوتات من العرب. أما نصيب المغرب الأقصى من هذه الهجرات، فقد كان مرتبطا بحركة العبور إلى الأندلس، بينما انحصر الوجود العربي في الساحل الشمالي (العلوي، 1995).

وبصفة عامة، فإن العامل السياسي والعسكري المتمثل في الانتصار في الفتوحات الإسلامية هو الذي مهد الطريق للغة العربية، وستدعمه عوامل أخرى دينية وثقافية واجتماعية وبشرية، استطاعت فيما يبدو أن تفسح المجال للغة العربية التي صارت- نظرا لما أحاطها من قوة وسيادة معنوية- لغة الإدارة، والتأليف، والكتابة، والتعليم (Marçais, 1938) والتخاطب اليومي في صفوف المجاهدين خاصة في المدن الأندلسية (Levy, 1998). ومضمون هذا الكلام أن التعريب انتظر فرصته المناسبة التي ارتبطت بمجيء هجرات جماعية أخرى ونقصد بوجه خاص العنصرين القيرواني والأندلسي اللذين كانا قوتين متفاعلتين في تقوية التعريب، حيث بدأ يظهر عمليا الانفتاح الفعلي على اللغة العربية.

4- الهجرات القيروانية والأندلسية

عند الاطلاع على المصادر، نلاحظ أن الأندلس وإفريقية كانتا من أهم المنافذ البشرية. والمغرب- كما هو معلوم- كانت أذرعه مفتوحة لاستقبال الوافدين من القيروان والأندلس (ابن أبي زرع، 1973؛ ابن القاضي، 1973؛ ابن عذاري، 1980). وكما يفهم من المصادر، فإن هذه العناصر شاركت في عمارته، وملأت حواضره، وامتزجت بسكانه؛ الشيء الذي كان له تأثير كبير في تسرب اللغة العربية وتقوية نفوذها (Camps, 1980).

إن الأسباب التي حركت الهجرة الجماعية إلى المغرب الأقصى كان العامل السياسي فيها أكثر بروزا وجلاءا، فالاضطرابات وانعدام الأمن بالأندلس وإفريقية كانا وراء هذه الهجرات، غير أن المصادر لا تقدم معلومات رقمية عن أعداد المهاجرين إلا في حالات قليلة. والمعلومات المتوفرة عن الربضيين والقيروانيين المهاجرين أكثر دقة ووفرة مقارنة مع باقي الهجرات الأخرى.

وإذا تتبعنا الأحداث السياسة وتسلسلها فإن الهجرة إلى المغرب الأقصى، ازدادت وتنامت منذ أن أصبح الأندلس ولاية من ولايات الإمبراطورية المرابطية الواسعة، وأصبح لها من الأسباب غير تلك التي تم الوقوف عليها من هجرة قسرية يبحث أصحابها عن الأمن والاستقرار إلى هجرة اختيارية متعددة الدوافع والأغراض.

ولقد كان الاستقرار الذي ساد المغرب الأقصى أيام يوسف بن تاشفين، ونسبيا على عهد ابنه علي، عاملا مشجعا على هجرة العديد من الأندلسيين. وعمل المرابطون على اجتذاب أكبر عدد منهم قصد الاستفادة من خدماتهم. ووفدت عليهم وفود أندلسية، رفعوا من مكانتها وأشركوها في أدوار متصدرة وبارزة، ومنحوها

مناصب سياسية وإدارية في البلاط، أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم (المراكشي، 1978؛ مجهول الحلل، 1979).

ولما كان المغرب الأقصى خلال العصر الموحدي أكثر أقطار الغرب الإسلامي أمنا واستقرارا، فإن تيار الهجرة الأندلسية إلى المدن المغربية بدأ يتجدد، وبلغ التواصل بين المغرب والأندلس منتهاه، ولاشك أن الظروف الداعية إلى الهجرة لم تتغير كثيرا. وهاجر العديد من الأندلسيين إلى العدوة الجنوبية قاصدين مناطقهم المفضلة، خاصة بالشمال، أو العاصمة مراكش. ويبدو أن هذا التلاقح كان له تأثير خاصة على الوضع اللغوي.

وخلال فترة الجلاء عن القواعد والمدن الأندلسية، بدأت أفواج الأندلسيين تصل إلى المغرب بسبب ضغوط ومضايقات المسيحيين. وقد كان لمدن الشمال نصيب وافر في استقبال جموع الوافدين من ديار الأندلس. (الناصري، 1954) ولما سقطت غرناطة نهائيا في يد الإسبان سنة 897 هـ/1492 م تزايدت أعداد مهاجري الأندلس، وشهدت مدن الشمال أكبر موجة للعناصر الأندلسية، متميزة بثقافتها، ولغتها، وأنماط عيشها (حجي، 1991 ؛ رزوق، 1991) والجدير بالإشارة أن هذه الفئات ضمت نخبا تمتعت بتكوين إداري، وثقافة عربية، مما ساهم في التمكين للغة العربية.

5-المدن مجال حيوي لوجود اللغة العربية

ارتبط تعمير المدن خلال العصر الوسيط بالتحولات التي شهدتها ابتداء من تاريخ تخطيطها، إذ كانت تشمل عناصر من داخل المغرب، والأندلس، والمشرق، نظرا لاستدعاء عناصر مختلفة لملء الفراغ داخل الأسوار؛ بحيث يتم ذلك عبر توالي هجرات مختلفة (Fatha, 1982). وهذا ما جعل التعريب يرتبط أساسا بالمدن التي شكلت محطات استقطبت الشرائح المهاجرة (Rosenberger, 1998) التي لم تتجاوز في سكناها العواصم الكبرى، وهي ذات أصول حضرية، مما سهل تسرب اللغة العربية كلغة للتواصل بين سكان المدن. أما الأرياف والبوادي -باستثناءات قليلة- فإنها لم تصب من العربية شيئا[4]. كما بقيت الأمازيغية متغلغلة في الصحراء

[4] ورد عند ابن عذاري أنه كان على وادي ورغة حصن كبير يسكنه جماعة من الأمازيغ. فحل عندهم رجل من الحضر فقال:

ألا هل أتى أهل المدينة أنني بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيئا قيل: ماذا تريده؟ لهم بين أحراز الوجوه قطوب

والجبال النائية[5].

أ- وثيرة انتشار اللغة العربية بالحواضر المغربية

بعد مراجعة المعلومات الواردة في المصادر، نستنتج أن هذه الهجرات ساهمت في تطعيم البنية السكانية للمدن بالجنس العربي، وحملت أعدادا من السكان الناطقين باللغة العربية، وكانت هذه العناصر الوافدة هي المحرك لعملية التعريب (Lévy, 1998). وتكفي الإشارة إلى نوع العلاقة التي كانت سائدة بين العناصر الوافدة والمحلية، لنسجل أن العنصر الأمازيغي بدأ يتعود على الوجود العربي، بل إن الطرفين عاشا جنبا إلى جنب، مكونين عشائر مختلفة في إطار الجوار والمصاهرة والعلاقات اليومية وتبادل المصالح والمعاملات التجارية[6].

كان للمدن دور ريادي في تعميق جذور اللغة العربية، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في قوله: *" ...اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة، أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية..."* (ابن خلدون، 1988). وإذا كان الحضر

---

[5] يتعلق الأمر هنا أيضا بتحركات العرب التي كانت في اتجاه الجبال. وحسب المصادر، لم يكن ممكنا لهم أن يفلتوا من النتائج الحتمية، فتمزغت ألسنتهم بالمصاهرة والمجاورة، وفقدوا كل صلة لهم باللغة العربية. ونجد من المصامدة من نقلت عنهم المصادر بأنهم من العرب الذين لجأوا إلى الجبال طلبا للأمان والنجاة أثناء موقعة الأشراف، (مجهول، الاستبصار، ص: 210)، فاكتسبوا بذلك اللغة الأمازيغية وأصبحوا لا يكادون يتكلمون باللسان العربي. وقد أشار الوزان إلى أن العرب الذين عاشوا بين الأمازيغ واندمجوا معهم تغيرت لغتهم وصارت خليطا من اللهجات الأمازيغية. واضطر الأدارسة وأعقابهم تحت تهديد القمع والتشريد أيام موسى بن أبي العافية إلى التحصن بالمناطق الجبلية والدخول في غمار العامة لتغطية أنسابهم. وهؤلاء الأدارسة الذين عاشوا بين الأمازيغ وظلوا على اتصال بهم، تغيرت لغتهم وعلى حد قول ابن خلدون "...وافترقت الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب..." (ابن خلدون، كتاب العبر،ج : 6 ، ص295). ولعل هذا يفسر الاعتقاد الراسخ لدى بعض الأمازيغ بأنهم من سلالة عربية. ونخلص إلى القول انطلاقا من هذه الأدلة التاريخية أن التواصل بين العرب والأمازيغ كان لا يسير دائما في اتجاه التعريب، وإنما حدث العكس أحيانا، خصوصا في الجبال، حيث ظلت الأمازيغية صلبة الموقع.

[6] شكلت التجارة عنصر تعريب، حيث انتشرت اللغة العربية عبر الطرق التجارية، واستطاعت أن تخترق مواطن متعددة. ويظهر أن هوارة، وهي مجموعة قبلية أمازيغية لها وجود تاريخي عريق، قد تعربت عن طريق التجارة الكبرى (زنيبر، 1999) التي جلبت العنصر العربي. ولاشك أيضا أن للعامل التجاري دوره في تسرب اللغة العربية إلى سجلماسة، التي تحولت إلى محور للتبادل التجاري (Levy, 1998)، وظلت لمدة طويلة مركزا مهما للمسالك الكبيرة التي تخترقها القوافل التجارية. وبما أنها كانت محط رحلات التجار عبر طرق التجارة الدولية فإن أهلها كانوا يجالسون مثلا تجار القيروان وبعض المدن المشرقية والأندلسية. ويبدو أن وسيلة التفاوض التجاري كانت هي اللغة العربية، لذلك فإن القوافل التجارية وفرت فرص الاحتكاك اللغوي.

يتعلمون لغة الوافد لدوافع سياسية وإدارية، فلا غرابة أن تنتشر اللغة العربية بين سكان مدينة نكور التي اختطها بنوصالح الحميريين سنة 123 هـ/741 م، وهم عرب ينتسبون إلى قائد عربي حل بالمنطقة منذ الفتوحات الإسلامية واتخذها موطنا لـــه، ويبدو أن عربا صاحبوه واستقروا معه. واضطلعت إمارة نكور بأدوار مهمة، ولعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام بين قبيلتي صهناجة وغمارة (البكري، 1911؛ ابن خلدون، 1988؛ ابن عذاري، 1980) كما قاومت تيار الخوارج والشيعة، ونشطت في حماية الساحل الشمالي من الغزوات الأجنبية. وفضلا عن هذا وذاك، ساهم عرب نكور في نشر اللغة العربية بين أهل الريف من غمارة وصنهاجة (مصطفى أبو ضيف، 1986).

وكانت إمارة نكور على علاقة وثيقة بالأندلس، لما كان لبني أمية على بني صالح من أيادي بيضاء في فداء أسراهم الذين وقعوا في يد النورمان (ابن القوطية، د.ت). ويفهم من رواية البكري أن بعض الربضيين لجأوا إلى جبال الريف، ويحتمل أن تكون إمارة نكور قد آوت بعضهم. ولا شك أنها كانت مركز جذب لعناصر عربية أخرى مثل الأمراء الأدارسة، فمن المرجح أن اللغة الأمازيغية بمدينة نكور كانت تتراجع تدريجيا.

وبعدوتي فاس، نلمس آثار التعريب الذي استمد قوته من العناصر الأندلسية والقيروانية (إسماعيل العربي، 1983). ويبدو أنه ما كان بإمكان هذه المدينة التي أصبحت مرفأ لهذه الجماعات أن تفلت من التعريب، بل إنها سخرت جهدها لتعريب المغرب (Marçais, 1938). والملاحظ أيضا أن المناطق التي استقر فيها الأمراء الأدارسة وحراسهم وحاشيتهم، قد بدأت تحتضن اللغة العربية. واستفاد إدريس الثاني من خبرة الجالية القيروانية في تعريب الإدارة، لذلك سارت اللغة العربية في أعقاب السلالة الإدريسية وحلت معهم حيثما حلوا[7].

لا ريب أن احتكاك الأمازيغ بالأمويين الذين وضعوا المغرب تحت نفوذهم

[7] حسب النصوص التي تم الاطلاع عليها، عرف المغرب الأقصى هجرة داخلية أملتها تطورات المجتمع الداخلية والتفاعلات الحاصلة مع محيطه. وكما تتفق أغلب المصادر، فبعد وفاة إدريس الثاني سنة 213 هـ/828 م خلفه ابنه محمد الذي نهج سياسة لا مركزية، وقام بتقسيم السلطة بين اخوته بنصيحة جدته كنزة (مجهول، مفاخر البربر، ص، 260-261). وإذا كان جل المؤرخين يذهبون إلى إبراز التأثير السلبي الذي لعبه هذا الإجراء على المستوى السياسي، لأنه كان أحد أسباب تفكيك السلطة المركزية وإضعاف نفوذه، فإنه من زاوية أخرى ساهم في تمصير أجزاء من المغرب، بظهور مراكز حضرية صغرى أصبحت مراكز جذب لجماعات أندلسية مثل البصرة وغيرها. كما أدى هذا التقسيم إلى توزيع السلالة الإدريسية والعنصر العربي على مختلف أنحاء النفوذ الإدريسي مثل سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة، وغيرها.

أزيد من قرن كان له أثر في نشر اللغة العربية بين السكان، خاصة أن الإدارة الأموية قد جلبت إلى سبتة عددا من الإداريين الناطقين بالعربية؛ بل إن ما جادت به مدينة سبتة من أدباء وعلماء دليل على انتشار الإسلام والتعريب بها (Rosenberger R. 1998). وكما سبقت الإشارة فإن الكثير من الأندلسيين اتخذوا المدن المغربية موطنا لهم خاصة خلال العصر المرابطي، حيث توطدت العلاقة السياسية والتجارية بين العدوتين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب، فنقلوا بذلك لغتهم (Lévy S. 1998) وثقافتهم، وتأثر سكان الحواضر بكثير من كلامهم. وتسربت اللهجة الأندلسية بألفاظها ومقاطعها التي تعود إلى لغة القبائل العربية التي استوطنت الأندلس منذ الفتح الإسلامي.

ساهم العنصر الأندلسي والقيرواني بشكل أو بآخر في تقدم اللغة العربية داخل المناطق الحضرية، وحتى في بعض المناطق الريفية المجاورة لها (إبراهيم حركات، 1998)، وذلك بدرجات متفاوتة. غير أنه حسب المعطيات المتوفرة، ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن تعريب المدن كان عميقا على النحو الذي توحي به القراءة الأولية للنصوص، لذلك لابد من الحذر عند قراءة الروايات القليلة التي وصلتنا عن الوضع اللغوي.

وحسب ما يقتضيه قانون التفاعل اللغوي، فإن هذه المدة القصيرة تبدو غير كافية كي يستبدل سكان المدن لغتهم الأصلية باللسان العربي، لذلك ظلت المدن تتلقى اللغة العربية بإيقاع بطيء (Rosenberger, 1998). وإذا استثنينا الحياة الرسمية والنخبة المثقفة من الفقهاء والعلماء الذين ارتبطوا بالبلاط، وهم أصحاب ثقافة عربية، ولهم معرفة واسعة باللسان العربي (Guichard, 1977)، فإن اللغة الأمازيغية كانت لا تزال حية تتمتع بنفوذها في كثير من المدن إلى جانب اللغة العربية التي كانت "تحبو حبوا". ومن المؤشرات على عدم عمق التعريب، هو أن الأسرة الأمازيغية داخل المدن حافظت على لغتها كأداة للتواصل اليومي بين أفرادها.

وتماشيا مع طبيعة الفكر السائد الذي لم يكن يسمح للمرأة بالاحتكاك الخارجي، بقيت الأسرة هي الأمين على اللغة الأمازيغية، وحالت دون اضمحلالها وانمحائها رغم استعمال رجالها للعربية (إبراهيم حركات، 1998). وأغلب الظن أن ألسنة الأسر الأمازيغية لم تتغير بسبب صلابة بنيتها في وجه المؤثرات الخارجية، إلا من كان منها كثير الامتزاج بالعرب. وإذا كان الأمر على هذا النحو في يومنا هذا، خصوصا في البوادي النائية، فيمكن القول إن المرأة باعتبارها الحضن الأول، كانت –ولا تزال– تقوم بدورها في الحفاظ على وجود اللغة الأمازيغية للتخاطب

بين أفراد الأسرة، وهذا لـــه أهميته بالنسبة للدراسات الاجتماعية.

لم تكن أدوات التواصل موحدة بين المجموعتين الأمازيغ والعرب. واستمر اللسان العربي إلى جانب اللسان الأمازيغي بوجود جماعات تتواصل في الحياة اليومية باستعمال اللغتين (Rosenberger 1,998). وهذه الإزدواجية اللغوية لم تكن سوى مظهرا لتنوع لغوي. وجملة القول، إن المدن كانت تسير في طريقها نحو التعريب بإيقاع بطيء، وبخطى متعثرة لكنها مستمرة لا تتوقف.

ب- واقع التعريب بين مدن الشمال ومدن الجنوب

إذا كانت خلاصة القراءة التي تقدمت هي أن تعريب المدن سبق تعريب البوادي، وأنه كان للمدن الدور الريادي في تعميق جذور العربية (Marçais,1938)، فإن ما يسترعي الانتباه أن الفرص بين المدن لم تكن متكافئة، إذ نلاحظ تفاوتا كبيرا بين مدن الشمال ومدن الجنوب. ونشير إلى أن المعلومات التي تتعلق بالجنوب يغلب عليها الاختصار، فالكتابات التاريخية لم تهتم بها إلا قليلا، ولا أدل على ذلك أنه خلال القرنين (2 و3 هـــ 8 و9 م) حظي شمال المغرب باهتمام أكبر من طرف أصحاب المصادر، لكن ماذا عن الأدلة التي تبين أن التعريب تركز في مدن الشمال دون الجنوب؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، لابد من إبداء مجموعة من الملاحظات البديهية، وهي أن جل المدن نشأت في النصف الشمالي من بلاد المغرب، وهذا يحمل دلالة تاريخية وسياسية واستراتيجية. فالمنطقة آهلة منذ وقت مبكر، كما أنها كانت أولى المناطق التي وطئتها أقدام الفاتحين. وكما سبقت الإشارة فقد تجمع لها من الحيوية، ومن المؤهلات الطبيعية والاقتصادية ما يغري بالاستقرار بها، على خلاف النصف الجنوبي الذي كانت أهميته تتركز بالخصوص في الجانب التجاري. وفضلا عن هذا وذاك، فإن الشاطئ المتوسطي كان هو المنفذ الرئيس الذي استعمله المغرب في العصر الوسيط، لذلك اكتسبت مدنه أهمية كبيرة (Lombard, 1971).

أما الوضع في الجهات الجنوبية فكان على العكس من ذلك، لأن المجتمع الحضري لم يكن يشكل سوى ظاهرة استثنائية بالمقارنة مع الشمال. فالطابع البدوي كان يغلب على المناطق الجنوبية، وأغلبها عبارة عن مساكن وقرى متفرقة لا ترقى إلى مستوى المدينة. وهذه حقيقة لها ما يؤكدها في الواقع، ذلك أن المصادر التاريخية لم تشر إلى مدن جنوبية كثيرة باستثناء قلة معدودة مثل سجلماسة، وأغمات، وتارودانت ولم يعرف الجنوب توسعا عمرانيا مثل الشمال؛ بل ظل يعيش في شبه عزلة جغرافية تطغى عليه البساطة، ولا يظهر عليه أثر كبير للتحضر. وقد

ساهم بناء مراكش– العاصمة المرابطية –في إخراج الجنوب المغربي من عزلته تلك، وخلق نوعا من التوازن بين الشمال والجنوب (زنيبر، 1999)، لكنه ظل يفتقر إلى وجود حواضر كبرى.

عند ملامسة خط الانتشار العربي، نلاحظ أن المدن الشمالية كانت نقط ارتكاز الوجود العربي، لأنها كانت أكثر احتكاكا بالفاتحين الأوائل، وغيرهم من الجماعات العربية والأندلسية التي انحدرت منها أجيال عديدة التحمت مع الأمازيغ. فلا ننسى أن أول الرحلات الجماعية التي استقبلها المغرب الأقصى من إفريقية وبر الأندلس كانت هي تلك التي اتجهت صوب فاس، وتحدثت عنها المصادر بإسهاب. فمدن الشمال كانت أكثر ارتباطا بالأندلس وإفريقية والشرق؛ بينما تقل أخبار الوافدين القيروانيين والأندلسيين في الجنوب مقارنة مع الشمال. وإذا علم أن المناطق الشمالية من المغرب كانت ممرا ضروريا نحو الأندلس، ومنفتحة على الممرات التي يسلكها الوافدون، كان بالإمكان أن نفهم لماذا كان نصيب مدن الشمال أوفر، بينما كان الجنوب يعيش في عزلة بمنأى عن هذه المؤثرات الخارجية الكبرى. ولم يتم العثور على ما يفيد وجود هجرات جماعية كبرى إلى هذه الجهات كما هو الحال بالنسبة لفاس مثلا، وإنما توافدت عليها عناصر أندلسية أو قيروانية أو مشرقية شكلت نخبة في وسط تميز بسيادة العنصر الأمازيغي.

إذا كانت المدن الشمالية قد قطعت أشواطا في التعريب، فإن هذا لا يسمح بتعميم هذا الاستنتاج على بقية المدن المغربية. وحينما نتحدث عن التعريب، نستثني بطبيعة الحال مدن القسم الجنوبي على الأقل خلال هذه الفترة، لأن اللغة العربية كانت لا تزال تعترضها عراقيل كثيرة، أهمها ثقل العنصر الأمازيغي ورجحانه على العنصر العربي، باستثناء مدينة مراكش التي يبدو أنها استقبلت أعدادا من الأندلسيين خصوصا من توفرت فيهم الخبرة الإدارية، والمهارة الصناعية، وتمتعت فيها اللغة العربية بالسيادة على المستوى الإداري والثقافي. وكما سبقت الإشارة، فإن مدن الشمال ظلت تمثل حلقة وصل بين الأندلس والشرق، عاشت على إثرها حركة تواصل بشري مستمر، تربطها بالقيروان ومدن الأندلس طرق تجارية ومسالك للمسافرين، لا تنقطع حتى في أحلك فتراتها. كما عرفت نزوحا جماعيا، لذلك شقت اللغة العربية طريقها إليها بسرعة.

وخلال العصر الموحدي تنامت اللغة العربية بمراكش بفعل الوجود الأندلسي (ابن عبد الملك، 1984)، والهلالي (ابن عذاري، 1985؛ الوزان، 1980)، وربما

الـــگومي (بروفانصال، د–ت) و السبتي أيضا[8]، غير أنها لم تكن منتشرة على نطاق واسع، وظلت اللغة الأمازيغية الأكثر تداولا بين الناس خاصة أن المدينة نشأت في مجال يطغى عليه العنصر الأمازيغي (البيدق، 1971؛Deverdun, 1956).

خلاصة القول إن أثر التعريب كان أكثر جلاءً في أوساط العلماء، ونخب أخرى داخل البلاط الموحدي ممن عملت بجانب الدولة، وتحملت مسؤوليات تعليمية وإدارية. وقد سبقت الإشارة إلى تركيبة المجتمع الفاسي، الذي ضم جماعات قيروانية وأندلسية هيمنت على المدينة، وطبعتها بطابعها العربي، كما ساهمت في صقل لغة أهلها وتطوير مفرداتها وبنيتها. ويعود أكبر جزء من مصطلحات دارجة مدينة فاس لهذه الموجة العربية، لذلك وجدها عبد الواحد المراكشي أجود اللغات وأفصحها "...*ولغة أهل فاس أفصح اللغات في ذلك الإقليم. ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب* ..." (المراكشي، 1978).

غير أن هناك مسألة تنافي ما تقدم من شيوع العربية في لغة المحادثة، ويتعلق الأمر باشتراط الموحدين في خطباء المساجد حفظ التوحيد باللسان الأمازيغي، فعندما دخلوا مدينة فاس صرفوا عن الخطبة الفقيه أبا محمد مهدي بن عيسى خطيب جامع القرويين، وكان من أفصح الناس لسانا، وقدموا مكانه أبا الحسن بن عطية لمعرفته اللسان الأمازيغي ولحفظه التوحيد (ابن أبي زرع، 1973). وإذا كان للغة مجالها الاستعمالي الذي يضيق ويتسع حسب الظروف، والأحوال، وعامل الزمن، فلا عجب من موقف كهذا احتاج إليه الموحدون، وهو إفهام التوحيد لمن لا يعرف سوى الأمازيغية (المنوني، 1977). "...*ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان*..." (مجموع رسائل موحدية، 1941). إلا أن هذا الإجراء لم يكن ليدوم طويلا لأن الأمور على ما يبدو أخذت مجراها الأول، ذلك أن أبا محمد يسْكُرْ بن موسى الجراوي (558–598) أحد الخطباء الرسميين بجامع القرويين، كان يؤم في الصلوات الخمس، لكنه لشدة عجمته أسند خطبة الجمعة إلى الفقيه محمد بن حسن بن زيادة الله المزني (ت572 هـــ/1176 م) (ابن أبي زرع، 1973).

وقد يكون تعيين أئمة يتقنون اللسان الأمازيغي والعربي راجع إلى الأهمية العددية للمهاجرين من سكان البوادي (عز الدين موسى، 1983). وكما هو الحال بالنسبة لمراكش، عرفت مدينة فاس نموا ديموغرافيا للعنصر الأمازيغي، حيث

[8] أشار ابن عذاري إلى أهمية الحضور السبتي ضمن نسيج ساكنة العاصمة الموحدية والمتمثل في وجود حومة تدعى حومة السبتيين، (ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 352).

وطّن عبد المؤمن عددا من المصامدة بفاس (البيدق، 1986). ويبدو أن توافد عائلات أندلسية إلى المدينة خلال القرون اللاحقة[9]، سيفسح المجال لوجود اللغة العربية في الحياة اليومية لساكنتها، لذلك كان أثر الأمازيغية ضئيلا جدا في بنية الفاسية القديمة (حليلي، 1981).

يجوز –على أساس ما تقدم– أن نستنتج أن وضع المدن المغربية، كان يسمح بانتشار اللغة العربية لأن أبوابها ظلت مفتوحة أمام العناصر الأندلسية. لكن ليس هناك ما يسمح بالقول بشيوعها كلغة للتخاطب اليومي بين كافة سكان المدن. فاللسان الأمازيغي ظل حيا، وبدرجات متفاوتة تختلف من مدينة لأخرى بطبيعة الحال. ولعل ما يبرر هذا الرأي هو تنامي هجرة العنصر الأمازيغي من البوادي إلى المدن خلال العصر الموحدي، لذلك فإنه من المنطقي أن لا يظهر التعريب بشكل أكثر جلاءً إلا بعد حيز مناسب من الزمن. فالمدن المغربية كان يعوزها الاستقرار الكافي لهذه الجاليات الأندلسية حتى يتغير لسان أهلها، وتتحول اللغة العربية إلى أداة للتواصل اليومي. وقد سبقت الإشارة إلى ظواهر تدل على أن الأمازيغية كانت لا تزال متمركزة بالمدن.

6– انتقال اللغة العربية الى البوادي الموحدية

ارتبط انتشار اللغة العربية بتحركات العنصر العربي، وفي هذا الصدد يمكن القول إن الغرب الإسلامي تأثر خلال العصر الوسيط بتنقلات بشرية شديدة التنوع، همت مختلف المجالات الممتدة عبر الأرياف والمدن (القبلي، 1997). وعرفت المنطقة ما يكفي من الحركية السكانية، وأبرز هذه التحركات تهجير القبائل العربية خلال القرن الخامس الهجري/11 م. وهي هجرة من نوع آخر تختلف عن سابقاتها كمّاً ونوعا. وقد اهتمت المصادر بهذا العنصر الجديد لكونه أهم كتلة بشرية عربية دخلت المغرب منذ الفتوحات الإسلامية، وكذلك لما أعقبه من تطورات ونتائج على جميع المستويات؛ خاصة على المستوى اللغوي.

إذا كانت الهجرات الهلالية قد حقنت المغرب الأقصى بدماء جديدة، وطعمته بالعنصر العربي، فإن انتقال العرب لم يكن له الطابع الفجائي الذي شهدته إفريقية. فالوضع لم يكن مشابها لأن إنزالهم جاء نتيجة تخطيط محكم، وتدبير منظم، وبدعوة ملحة من طرف الدولة الموحدية (ابن صاحب الصلاة، 1964؛ زنيبر، 1999). ويعتبر تهجير القبائل العربية إلى المغرب الأقصى إعلانا عن ميلاد مرحلة جديدة

[9] هاجر آخر ملوك بني الأحمر ومعه عدد من الفقهاء والقضاة والأطباء والعلماء والحكماء، متخذا وجهته مدينة فاس، (المقري، 1968).

في تاريخ التعريب، خاصة أن هذه المجموعات العربية لم تفقد الكثير من مظاهر ثقافتها الأولى. فحيثما حلت أدخلت معها مراسيمها، وعاداتها، ولغتها؛ لذلك شكلت الدفعة الجديدة التي رسخت نفوذ اللغة العربية بالبوادي خاصة أن حضورها كان منحصرا في المراكز الحضرية التي كانت المقر الرئيس للمجموعات العربية الأولى. وقبل التطرق إلى الدور الذي ساهمت به هذه الهجرات في تعريب البوادي سنحاول إبداء الملاحظات الآتية:

● الملاحظة الأولى : هي ندرة المعلومات المتعلقة بالبوادي المغربية التي ظلت مهمشة بسبب هيمنة المدينة. ذلك أن المصادر لم تهتم سوى بالحواضر الكبرى مثل فاس ومراكش، وخارج أسوار المدن كان صمت المصادر يزداد. وكلما تم الابتعاد عن المجال الحضري، أصبحت المعلومات قليلة، ولا نكاد نسمع شيئا عن السكان وحياتهم اليومية، وظلت العلاقة بين المدن وباديتها تكاد تكون باهتة. ولاشك أن العلاقة مثلا بين مراكش وفاس مع القيروان وتلمسان وبعض حواضر الأندلس الكبرى أوضح بكثير في المصادر، من علاقتها مع البوادي المحيطة بها. وإذا ذكر سكان الأرياف ففي معرض الفوضى، أو المساهمة في الحملات العسكرية، أو عبر استخلاص الجبايات. وكأن علاقة السلطة بالبادية تنحصر في تقديم مثل هذه الالتزامات. والنتيجة أنه لا نعرف الكثير عن البوادي المغربية التي ظلت تقبع في ركن التاريخ المنسي وبقيت أخبارها مختفية، وفي أحسن الأحوال يغلب عليها التعميم.

ومع مجيء القبائل الهلالية ستبرز البادية المغربية على صفحات المصادر. كما لا ينبغي إغفال دور الصوفية الذين كانوا يتخذون البوادي والقرى مراكز يمارسون فيها أنشطتهم. وحسب كتاب **التشوف**، فإن جنوب المغرب كان مركز الثقل الرئيس لنشاط الصوفية بما وجد فيه من رباطات عريقة استمرت في أداء وظيفتها الدينية والعلمية؛ لذلك برزت البادية في كتب المناقب.

● الملاحظة الثانية : هي أن اللغة العربية دخلت إلى المغرب الأقصى ابتداء من القرن الأول والثاني للهجرة/7و8 م. وإلى حدود مجيء بني هلال وسليم كانت متمركزة أساسا في المدن، في حين بقيت البوادي بمنأى عن هذا التحول، وهذا يعكس محدودية التعريب (Marçais, 1956 ; Camps, 1983 ; Lévy, 1998). مع تهجير القبائل الهلالية، ستبدأ اللغة العربية في الزحف على البوادي لذلك فإن العصر الموحدي يعتبر بحق نقطة انطلاق التعريب في البوادي التي انتظرت لحظتها المناسبة على يد بني هلال الذين كان لهم أثر كبير في انتشار اللغة العربية بين سكان البوادي.

• الملاحظة الثالثة : هي أن اللغة العربية قد تسربت إلى بعض البوادي قبل مجيء بني هلال. ولعل أهم العوامل التي ساهمت في ذلك، قربها من العواصم الكبرى، والقرى الآهلة بالتجار، وأرباب الصنائع والمهن، ومجاورتها للطرق التي تندفع فوقها التيارات البشرية من مختلف الاتجاهات، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لغمارة[10].

• الملاحظة الرابعة : هي أن هذه المجموعة العربية كانت تتشكل من أسر، وعائلات، وعشائر، انتقلت بأحيائها وخيامها (الناصري، 1954)، واستقرت بالمناطق السهلية. وما من شك أن هذا الاكتساح ترك بصماته على البادية المغربية.

• الملاحظة الخامسة : هي أنه لا يوجد فيما يبدو ذكر لأية مقاومة للغة العربية، في حين نجد رفضا لسلوك العنصر العربي. فالصراعات القائمة بين

[10] رغم أن غمارة منطقة قروية لا تنتمي إلى فئة الحضر بالمعنى الصرف، فإنها تميزت بلهجة ليست بدوية ولكنها ذات مميزات حضرية كما هو الشأن بالنسبة للمدن العتيقة. ونستنتج أن هذه اللهجة انتقلت إليها عن طريق فاس التي عرفت التعريب قبل غيرها من المدن المغربية. فالمنطقة قريبة من فاس، ومعبر هام إليها. ولا ننسى كذلك أن هذه المدينة قد اكتنفت محيطها القروي "...ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول وزواوة ومجاصة وغياتة وسلالجو..." (الادريسي، ج 3، ص :246) فهذه القبائل التي كانت تسكن نواحي فاس رغم أنها أمازيغية فإنها كانت تتحدث باللسان العربي الدارج خلال القرن السادس الهجري/12م لقربها من فاس.
إن التأثير الذي مارسته المدن على البوادي المحيطة بها هو الذي يفسر تعريب غمارة ببلاد الريف وتميز لهجتها. فغمارة المعروفة اليوم بجبالة تمتد على شكل هلال من طنجة إلى تازا، ومحاطة بعدد من المدن هي: نكور وبادس وتيگيساس وتطوان وسبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا والبصرة وبني تاودا ووليلي وفاس وتازا، وهي مدن كانت موطن العديد من العرب الوافدين. كما أنها تمتعت بأسواق، وموانئ تخترقها الطرق التجارية الرئيسة لشمال المغرب. وكان من الطبيعي بسبب هذه التأثيرات أن تكون غمارة أول من تعرب(Colin).
هناك عوامل أخرى أسهمت إلى حد بعيد في تعريب غمارة، فضلا على تميز لهجة أهلها التي يرجع أصلها إلى لغة المراكز الحضرية القديمة. ولعل أبرزها أنها كانت أولى المناطق التي احتكت بالفاتحين الأوائل من العرب المرافقين لعقبة بن نافع وموسى بن نصير. كما هيأها موقعُها الجغرافي لتكون ملتقى الواردين من المشرق بقصد العبور إلى الأندلس. وخلال القرن الرابع الهجري/10م اضطر الأدارسة وأعقابهم تحت تهديد القمع والتشريد أيام موسى بن أبي العافية إلى اللجوء إلى المناطق الجبلية من غمارة والريف والتحصن بها. ولا يخفى ما كان لاستيطان الأدارسة بين ظهرانيهم من تأثير أسهم في تعريبهم (الهراس، 1986). وازداد تأثر منطقة غمارة باللغة العربية حين استقبلت جماعات أندلسية في أفواج متعاقبة هروبا من الفتن التي كانت تشتعل في الأندلس. فشكلت بذلك نقطة وصل بين العدوتين، إذ منها دخل أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى، وفيها استقر الكثيرون منهم فحلت معهم اللهجة الأندلسية. ولعل تطوع سكان غمارة للجهاد بالأندلس، وما حدث من احتكاك وتأثير متبادل مع ساكنة مدنها قد ساهم بدوره في نشر اللغة العربية بينهم (Colin) خاصة في طابعها الأندلسي.

العرب والسكان الأصليين لم تكن مرتبطة بالانتماءات البشرية، أمازيغ وعرب بقدر ما كانت تتحكم فيها قضايا النزاع حول الأرض والمجال. ويظهر أن دخول عناصر جديدة بدوية في البنية الاجتماعية للمغرب لم يمر دون مشاكل، خاصة أنها كانت في خدمة المخزن الموحدي الذي خول لها امتيازات، وأقطعها الأراضي مقابل أداء دور الخفارة، واستخلاص الجباية. فتحول بذلك هؤلاء الجباة إلى أسياد (ابن خلدون، 1988؛ ابن عذاري، 1985). وبما أن النظام الجبائي معرض للخلل في أية لحظة خاصة في غياب سلطة مركزية رادعة، فإن الأمر يصبح متعلقا بتوازن القوى بين القبائل الجابية، والقبائل الغارمة (بولقطيب، 2001) فتحولت بذلك القبائل العربية إلى عبء بسبب ممارساتها التي لم تكن تخلو من أعمال السطو والنهب، لذلك كان من الطبيعي أن تحدث صراعات بينها وبين السكان.

وإن الوقوف على كتابَيْ **التشوف** و**المقصد الشريف** من شأنه أن يوضح هذه العلاقة. فالمصدران معا يقدمان صورة لعلاقات لا تخرج عن إطار الصراع، غير أن الاندماج بين الطرفين كان ضرورة فرضتها طبيعة الحياة، والمعاملات اليومية، وإن لم يخل ذلك من صعوبة. وكان لعامل المصاهرة، وصلات القرابة، والمجاورة في المساكن، والاختلاط في الأسواق والمراعي دور في عملية الإندماج. ومع مرور الزمن تحولت القبائل العربية من عناصر دخيلة إلى عناصر منخرطة في النسيج الإجتماعي. ولعل عامل التساكن، والتمازج بين مختلف المكونات البشرية على اختلاف أصولها، من المميزات التي انفرد بها المجتمع المغربي.

أ- مواطن القبائل العربية بالمغرب الأقصى

اكتسح العرب الهلاليون بوادي المغرب الأقصى وسهوله (Marçais, 1913). ولم يكن لهذا الإكتساح البارز أن يتم دفعة واحدة، وإنما عبر مراحل. وأهم ما لاحظه الدارسون عن زحف القبائل الهلالية ما كان من آثار هذا الانتشار العربي. ومن أهم المناطق التي استقبلت العناصر العربية نجد دكالة وتامسنا وبلاد الهبط وسهل تادلا وبلاد ملوية وسجلماسة ودرعة والمنطقة التي تليها غربا إلى المحيط (ابن عذاري، 1985؛ ا بن خلدون، 1988).

ب- عوامل ساهمت في التمكين للغة العربية بالبوادي

لعل تهجير القبائل العربية كان السبب المباشر الذي عمل على تعريب البوادي (Marçais, 1991)، خاصة أنها تفرقت على سهول المغرب وصحراءه، وجاورت أهل البلاد، وامتزجت بهم فتوسعت بذلك رقعة التعريب. وأهم ما يمكن

الإشارة إليه في هذا الصدد أن ظاهرة الترحال قد ساعدت على تعزيز انتشار اللغة العربية (Camps, 1980). كما ساهمت التحركات الداخلية بدورها في هذا المجال.

• **الترحال:** ظاهرة موجودة في مناطق متعددة من بقاع الأرض، تحدث في بيئات متعددة، وهي وليدة ظروف اجتماعية وطبيعية، مثل قلة التساقطات والجفاف. هذا النشاط الاجتماعي يعكس التفاعل الدائم والطويل مع البيئة. والعرب بحكم تقاليدهم الموروثة اعتادوا على الترحال والحياة البدوية، فهم أهل كسب ورعي أكثر منهم أهل زراعة. احترفوا الرعي ومارسوه منذ قرون عديدة (الناصري، 1954) وكانت تحركاتهم مدفوعة بالرغبة في الحصول على مراع جيدة لماشيتهم، وامتلاك موارد المياه. فعرب معقل الذين كان نمط عيشهم يعتمد أساسا على الرعي وسكنى الخيام قد تقلبوا في قفار صحاري درعة ثم ارتحلوا إلى تادلا (ابن خلدون، 1988). كما تعودت القبائل الأمازيغية على الترحال منذ القديم من أجل امتلاك مناطق غنية، لذلك فإن التعريب انتشر خاصة عند الرحل الأمازيغ (Camps, 1983؛ صدقي، 2002).

• **التحركات القبلية:** كان للموحدين السيطرة التامة على القبائل العربية، حيث تمكنوا في أول الأمر من التحكم في عملية انتشارها. واستطاعوا ضبط تحركاتها، وتسييرها وفق إرادتهم؛ وإن لم يكن ذلك بالأمر اليسير، لأن نزول عرب بني هلال وسليم بالمنطقة كقبائل لها عصبية وتقاليد حربية، لم يكن من السهل أن تنقاد دائما للطاعة؛ خاصة أنها لا تخضع إلا لمن هادنها (مجهول، الاستبصار، ص : 129). وعندما أخذت الدولة الموحدية في الضعف، تمادى بنو هلال في تمردهم، واستهانوا بسلطة الدولة (ابن عذاري، 1985؛ ابن أبي زرع، 1973؛ ابن خلدون، 1988). وكانوا يخرجون من حين لآخر عن طوعها، ويطلبون مجالات أخرى[11] فكانت لذلك نتائج على مستوى التوزيع السكاني.

وعملت الدولة الموحدية على التخفيف من حدة التحركات القبلية، فجاء رد فعلها قويا. ففي سنة 600 هـ/1203 م، وجه الناصر حملة تأديبية لعرب تادلا الذين رحلوا إلى تامسنا، فاستحكمت العداوة بينهم وبين القبائل التي كانت تقطن بالمنطقة. فوجه جيشه لإعادة توطين القبائل المهاجرة بمواطنها السابقة بتادلا (عزاوي، 1995). وعندما تحرك الرشيد إلى الغرب سنة 635 هـ/1238 م، فر الخُلْط أمامه،

[11] انتشر عرب معقل بسهل سوس، وما والاه ابتداء من منتصف القرن السابع الهجري، حيث نزحوا من الغرب ليزاحموا قبائل سوس، وليربطوا الصلة مع علي بن يدر الذي تمرد على ممثل السلطان بتارودانت، وتحصن بها خلال عام 636هـ/1239م، (ابن خلدون، كتاب العبر، ج: 6، ص، 367).

وافترقوا في القبائل (ابن عذارى، 1985). وظلت المجموعات العربية تتعرض لتقلبات في المناطق بسبب نزعتها الاستقلالية، ودخولها غمار السياسة، مما ساهم في الرفع من أعداد الناطقين باللغة العربية.

- **الجيش:** وفر الانخراط في الجيش للأمازيغ وللعرب فرصة الالتقاء والاحتكاك، (العروي، 2000). فالجيش الموحدي لم يكن دائما داخل المغرب، ولكن كان له اتصال دائم ومباشر بشرق المغرب والأندلس، وهي مناطق كان لها تأثير في التعريب. فأمام ضغط المعارك المشتعلة بالأندلس كانت حاجة الموحدين كبيرة لسيوف العرب، لذلك أدمجوهم في الجيش إلى جانب الأمازيغ، والغُز، والأندلسيين، والروم. ومادام العرب قد استقدموا لهذا الغرض نظرا لخبرتهم القتالية، فقد شكلوا عناصر مهمة في هذه المؤسسة، وخاضت بهم الدولة الموحدية معارك جهادية. ولعل إسهام العرب الهلالية في الجيش الموحدي كانت له آثار بعيدة المدى في تعريب القبائل الأمازيغية.

ج- تغلغل اللغة العربية في البوادي المغربية

تعرب الأمازيغ تدريجيا بمخالطتهم للمجموعة العربية (Camps, 1980)، فقبائل هوارة، وهي تجمع أمازيغي قديم، استعربت كغيرها من القبائل التي خالطها العرب، وربما كانت من القبائل الأولى التي تسربت إليها اللغة العربية لأنها كانت على اتصال شفوي مستمر معهم (الوزان، 1980). وأغلب الظن أن لسان أهلها تغير بسبب تعاطيهم للتجارة الكبرى، حيث كان استعمال اللغة العربية سائدا (زنيبر، 1999)، كما انتشرت اللغة العربية في شرق المغرب، لأن قسما مهما من عرب معقل قد استوطن المجالات المترامية بأقصى المغرب الشرقي، وجاور قبائل زناتة الرعوية في القفار (صدقي، 2002). وتغلغلت اللغة العربية كذلك في أجزاء غير يسيرة من الصحراء[12].

ولاشك أن أثر القبائل العربية ببلاد الهبط الواقعة بين مجاري مياه اللكوس وواد لاو كان واضحا، فقد أقام بنو رياح بالمنطقة ابتداء من القرن السادس، وفي القرن الثامن حلت بها قبائل الخُلْط، وبنو سفيان، وبنو جابر، وبنو عاصم.

[12] وكما نشاهد اليوم مازال التأثير العربي أقرب إلى أصله بجزيرة العرب مصدر القبائل العربية المهاجرة، ولعل وجود بعض التصاريف النحوية الآن في الصحراء، دليل على أن اللغة العربية قد تسربت عن طريقهم. وغالبا ما يتميز أهل الصحراء بلغة متينة تعتمد على حفظ أراجيز العرب. وهم أصحاب ميول أدبية يتذوقون الشعر العربي ويطربون له. كما أن ملامح الشعر الجاهلي والأموي تنطبع قوية على إنتاج شعرائهم (الجراري، 1978).

ويبدو أن البادية كانت تعرف ازدواجية لغوية، فالأمازيغية كانت لاتزال تحتفظ بمكانتها كلغة للتخاطب اليومي في البوادي، إذ ما كان لهذه الفترة الوجيزة أن تسمح باستبدال اللغة الأصلية، لأن اللغة كما سبق الذكر تخضع لقانون التطور. وقد سجل ابن قنفد أثناء زيارته لدكالة سنة 769 هـ /1367 م أن القليل من سكانها يتكلم العربية (ابن قنفد، 1965). وإلى نهاية القرن الثامن كانت أزمور المدينة الرابضة على الضفة اليسرى لمصب نهر أم الربيع لا تزال تحتفظ بلسانها الأمازيغي، وذلك حسب شهادة ابن الخطيب (ابن الخطيب، 1977). ولاحظ الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري/16 م أن سكان الشاوية كانوا يتحدثون بالأمازيغية. وهكذا فإن الأمازيغ كانوا يتعربون تدريجيا. ومع مرور الزمن سيأخذ التعريب في البوادي وجها أكثر بروزا، وستزيده الأيام رسوخا، كما كان للقبائل العربية أكبر الأثر في تشكيل لهجة البوادي التي تميزت بطابعها الخاص، حيث التأثير البدوي واضحاً ويمكن تمييزها بسهولة عن لهجات سكان المدن.

خاتمة

كان هذا الواقع وليد تفاعل يومي وتاريخي، عرفه المجتمع المغربي على مراحل وحلقات، وبكيفية تدريجية وبطيئة تسير وفقا لقانون التطور الذي يخضع له عادة انتشار اللغات والعادات وسائر المؤثرات الحضارية.

وخلال القرون اللاحقة ستصبح اللغة العربية سارية في شرايين المجتمع المغربي، ملتحمة به إلى جانب اللغة الأمازيغية، على اعتبار أنهما إحدى العناصر الفاعلة لحفظ الهوية التي تشكلت – ليس في المغرب الأقصى وحده – ولكن في كل أقطار الشمال الإفريقي. وفي عمق التاريخ المغربي نجد هذه الهوية الحضارية الأمازيغية العربية، وهي من الثوابت التي حسمت في تاريخ المنطقة، وتبلورت معها هوية المغاربة.

بيبليوغرافيا

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي (ت 1325/726)، (1973)، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور.

ابن الخطيب السلماني، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد (ت 776–1374)، (1977)، *معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار*، الرباط، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب.

ابن الزيات التادلي، أبو الحجاج يوسف بن يحيى (ت 627/ 1229)، (1984)، *التشوف إلى رجال التصوف*، تحقيق أحمد التوفيق، نشر كلية الآداب بالرباط.

ابن القاضي، أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، (1616/1029)، (1973)، *جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور، ط 1.

ابن القوطية القرطبي، (ت 367)، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار النشر للجامعيين، (د ت).

ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي (ت1405/808)، (1988)، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، بيروت، دار الفكر.

ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي (توفي بعد عام 1198/594)، (1964)، *تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور الإمام المهدي في الموحدين على الملثمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين*، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، ط 1.

ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله القرشي (187– 257)، (1964)، *فتوح إفريقية والأندلس*، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري (634–703)، (1984)، *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن*، تحقيق محمد بنشريفة، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 1312/712)، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق كولان وآخرون، بيروت، دار الثقافة، 1980،ج 2، وقسم الموحدين، تحقيق الكتاني وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي،

والدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

ابن قنفد القسطنطيني، أحمد بن الخطيب (ت1408/810)، (1965)، *أنس الفقير وعز الحقير*، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي.

أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت944/333)، (1968)، *كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس*، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية.

أبو ضيف أحمد، مصطفى، (1986)، *أثر القبائل العربية في الحياة المغربية من الفتح العربي إلى سقوط الدول المستقلة*، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط 1.

البادسي، أبو محمد عبد الحق بن إسماعيل (توفي بعد 1322/722)، (1982)، *المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف*، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية.

بروفنصال، ليفي، *الإسلام في المغرب والأندلس*، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر.

البكري أبو عبيد (ت1085/478)، (1911)، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، نشر دي سلان، باريس.

بلْ، ألفرد، (1981)، *الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم*، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2.

بولقطيب، الحسين، (2001)، *الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى*، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، جامعة بوشعيب الدكالي، كلية الآداب بالجديدة، مرقونة.

الجراري، عباس، (1978) ، *ثقافة الصحراء*، الدار البيضاء، دار الثقافة.

الجزنائي، (1967)، *جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية.

حافظي علوي، حسن، (1997)، *سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي*، الرباط، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حركات، إبراهيم، (2000)، *مدخل إلى تاريخ العلوم في الغرب المسلم حتى القرن 15/9*، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ط 1 .

حركات، إبراهيم، (1998)، *المجتمع والسلطة في العصر الوسيط*، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق.

حليلي، عبد العزيز، (1981)، « مقارنة في النظام الصوتي للعربية الفصحى والنظام الصوتي للفاسية القديمة »، *مجلة البحث اللساني والسيميائي*، منشورات كلية الآداب بالرباط.

الدباغ، أبو زيد، عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي (605 – 696)، (1968)، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*، أكمله أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت (1435/839)، تحقيق إبراهيم شبوح، مصر، مكتبة الخانجي.

الرقيق القيرواني، أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم، (1968)، *تاريخ إفريقية والمغرب*، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس.

زنيبر، محمد، (1991)،« التبادل الثقافي بين الأندلس والمغرب وأثره في التطور العلمي بالبلدين»، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، الرباط، ع 16.

زنيبر، محمد، (1999)، «الثورة الموحدية»، «أغمات ومراكش من خلال نزهة المشتاق للإدريسي»، « الحس الإعلامي عند الموحدين»، ضمن: *المغرب في العصر الوسيط الدولة، المدينة، الاقتصاد*، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص 115 –131 و ص ص 329 – 340 و ص ص 175 – 194.

الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله الحسني السبتي (ت1165/564)، (1970)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، تحقيق جماعة من الباحثين .

صدقي، أزايكو علي، (2002)، «الإسلام و الأمازيغ »، *مجلة الهوية* ،عدد 15، ص 5– 65.

الصنهاجي، أبو بكر بن علي، (1986)، *أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين*، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2

الصنهاجي، أبو بكر بن علي،(1971)، *أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين*، نشر عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط.

الطالبي، محمد، (1985)، *الدولة الأغلبية*، ترجمة المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (د–ت)، *تاريخ الأمم والملوك*، دار القاموس.

العربي، إسماعيل، (1983)، *دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة*، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

العروي، عبد الله، (2000)، *مجمل تاريخ المغرب*، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،ج2، ط2.

عزاوي، أحمد، (1995)، *رسائل موحدية، مجموعة جديدة*، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، ج 1.

العلوي القاسمي،هاشم، (1995)، *مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/10م*، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

القادري بوتشيش، إبراهيم، (1994)، «علاقة الخلافة الإسلامية بمنطقة سوس إبان عصر الولاة»، *ضمن: تاريخ الغرب الإسلامي : قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة*، بيروت، دار الطليعة، ، ص37–53.

القبلي، محمد، (1997)،« حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد»، ضمن: *الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل*، الدار البيضاء، دار توبقال، ص41–70.

مؤلف مجهول (توفي بعد 1191/587)، (1985)، *كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار*، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط2.

مؤلف مجهول، (1934)، *مفاخر البربر*، نشر ليفي بروفنصال، الرباط، المطبعة الجديدة.

المالكي،أبو بكر عبد الله بن محمد (ق11/5)، (1983)، *كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية وزهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم*، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

مجموع رسائل موحدية *من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية*، (1941)، نشر ليفي بروفنصال، الرباط، المطبعة الاقتصادية.

المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت 647– 1249)، (1978)، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط 7.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت1632/1041)، (1968)، *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب*، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

المنوني، محمد، (1977) ، *العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين*، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط 2.

موسى، عز الدين عمر، (1983)، *النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري*، بيروت، دار الشروق.

الناصري السلاوي، أحمد بن خالد، (1954)، *الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، الدار البيضاء، دار الكتاب.

الهراس، المختار، (1986)، «سيرورة تكون الهياكل القبلية في جبالة»، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، ع 12.

الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، (1980)، *وصف أفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة، الرباط، ط 1.

Aguadé, J. et *al* (1998), *Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialectologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Area de Estudios Arabes e Islamicos.

Camps, G. (1980), *Berbères aux marges de l'histoire*, Hespérides.

Camps, G. (1983), « Comment la berberie est devenue le Maghreb arabe » *R.O.M.M*, 35, pp.7-24.

Colin , G. S « Al – Magharib », *Encyclopédie de l'Islam*, T. I, pp. 1193-1198.

Cressier, P. (1998), « Urbanisation, arabisation, islamisation au Maroc du Nord : Quelques remarques depuis l'archéologie », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental, Dialectologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.27-38.

Deverdun, G. (1959), *Marrakech des origines à 1912*, Rabat, Editions techniques Nord- Africaines, T.I.

Fatha, M. (1982), *Contribution à l'histoire de la ville marocaine des Mérinides au Wattassides*, Bordeaux.

Garcin, J.C et autres, (2000), *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X-XV siècle*, Paris, PUF

Guichard, P. (1977), *Structures sociales "orientales" et "occidentales" dans l'Espagne musulmane*, Paris, T.I.

Laroui, A. (1970), *L'histoire du Maghreb*, Paris, F.Maspero, pp. 139-146.

Lévy, S. (1998), « Problématique historique du processus d'arabisation au Maroc : pour une histoire linguistique du Maroc », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialéctologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.11-26.

Lombard, M. (1971), *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, Flammarion.

Marçais, G. (1913), *Les Arabes en berberie du Xiè au XIVè siècle*, Paris Constantin.

Marçais, G. (1991), *La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, éd. Afrique Orient, Casablanca.

Marçais, W. (3198), *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, vol I «L'arabisation des villes », Alger, A.I.E.O.

Marçais, W. (1956) *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, vol II « L'arabisation des campagnes », Alger, A.I.E.O.

Marçais, W. « A*l-Arab* », *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. I, pp. 548-549.

Montagne, R. « La civilisation du désert » *in Revue de la Société de Géographie*, n° 7 - sept.-déc. 1948, Paris.

Rosenberger, R. (1998), « Les villes et L'arabisation. Fonction des centres urbains au Maghrib al- Aqsa (V IIIe- XVs..) », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialéctologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.39-52.

Sourdel Thomine, J. « Khatt », *Encyclopédie de l'Islam*,T.IV, pp.1144-1154.

Terrasse, H. « L'ancien Maroc, pays d'économie égarée », (1947), *in Revue de la méditerranée,* pp. 37-53

Terrasse, H. (1952)*, Histoire du Maroc*, Casablanca, ed. Atlantides, T.I.